عوامل تشكل الحضارات وأفولها عند كل من "مالك بن نبي وابن خلدون"

– الأستاذ: بوهناف عبد الكريم. جامعة ادرار

– الأستاذ: شاوي رياض. جامعة تبسة

ملخص المداخلة:

يتجاوز مشروع التغيير الحضاري في صيغته التنظيرية والفكرية، وواقعيته الاجتماعية عاملي الزمان والمكان، واخذ اهتماما كبيرا عند عديد المجتمعات وعبر مختلف الأزمنة والفترات، والأكثر من ذلك ان الخطاب التجديدي يحمل صفة الكلية والتكاملية، ولا يقبل التجزئة ولا الانقسامية، وفي المجتمعات الإسلامية كان منذ قرون طويلة ضرورة اجتماعية، واكبر إشكالية فلسفية وفكرية...فلا غرابة أن نجد مفكرا بارعا كابن خلدون قد حاول بعث هذا المشروع ودراسة حالة التقهقر الحضاري للمجتمعات الإسلامية في عصره، وبحث في العوامل المتحكمة في الدورة الحضارية، ومن بعده بقرون نجد محاولة أخرى لإعادة بعث هذا المشروع من جديد وفق تصور حديث يستلهم في مواقع عديدة من المنظومة الخلدونية بعض مفاهيمها وأدواتها التحليلية، انه مالك بن نبي صاحب هذه المحاولة الجديدة.

فالمفكران وقد تشابهت عليهما الأحوال، وعاشا في ظروف متشابهة إلى حد بعيد رغم تباعد الأيام – فحالة التقهقر والانحطاط هي الصورة المميزة للمجتمعات الإسلامية في الفترة التي عاش فيها كل مفكر – فقد تشابهت كذلك حولهما الأقوال، وأصبحت مساهمات مالك بن نبي في هذا المنحى مكملة ومنقحة لإسهامات ابن خلدون، فلما قال هذا الأخير أن المغلوب مولعا دائما بتقليد الغالب، قال بن نبي بنظرية القابلية للاستعمار وفي كلتا الأطروحتين يتضح القول بتأثير العوامل الخارجية على الحالة الحضارية لأي من المجتمعات الإنسانية، هذا التأثير الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالعوامل الداخلية المتشابكة والعديدة لتلك المجتمعات.

وتأتي مداخلتنا هذه كمحاولة لسبر أغوار مشروع التغيير الحضاري عند كل من المفكرين – ابن خلدون ومالك بن نبي – متبعين نقاط الاختلاف والتشابه في هذين التصورين، من حيث ماهية التغيير الحضاري،مرجعيته، أبعاده، عوامله، أدوات إحداثه، ومآلا ته.

تقديم:

لم ينشغل الإنسان عبر تاريخه الطويل بقضية ما، كانشغاله بفكرة التقدم الحضاري حتى أصبح المفهوم من أكثر المفاهيم تداولا من قبل السياسيين والعلماء والفلاسفة، وتأسست حوله الكثير من الفلسفات والنظريات العلمية، وقد ارتبط هذا المفهوم بمفاهيم أخرى متقاربة الوظيفة، مثل مفهوم التطور، الحداثة -التحديث-، العصرنة، التغير الحضاري وغيرها،حيث حاولت منظومة العلوم الاجتماعية والإنسانية تناول هذه المفاهيم بصورة أكثر موضوعية وحيادية، غير أن النقاد قد سجلوا العديد من الثغرات والإختلالات في هذا الإطار، فقد اتجه أنصار النظرية التطورية إلى اعتبار التغير هو حالة التقدم من مستويات حضارية دنيا إلى مستويات حضارية أعلى، واضعين التاريخ الاجتماعي والثقافي والاقتصادي وحتى السياسي للمجتمعات الإنسانية على خط سير كانت نهايته حالة المجتمعات الأوروبية خلال القرن التاسع عشر-19- وعند التطوريون الأوائل، وتجسده الليبيرالية الديمقراطية حسب فرانسيس فوكوياما التي اعتبرها نهاية التاريخ أو آخر صورة للتغير الحضاري.

إذن فقد قسم أنصار النظرية التطورية، وأنصار نظريات التحديث مثل نظرية "convergence" المجتمعات الإنسانية إلى قسمين، مجتمعات متحضرة متقدمة (الدول الغربية)، ومجتمعات أخرى غير متحضرة ومتخلفة هي دول العالم الثالث- الجنوب-، منها الدول الإسلامية، وقد تشكلت هذه النظرة منذ قرون عديدة، مع اللحظات الأولى لاحتكاك أوربا مع المجتمعات الأخرى[1]، مع كثرة الرحلات والاستكشافات الجغرافية، وحركة المد الاستعماري بعد ذلك، غير أن الحديث بعد ذلك عن قضايا التقدم والتغير الحضري اخذ بعدا أكثر علمية كان ذلك فقط في اللحظة التي تم فيها الاعتراف بقضية النسبية الثقافية، وأصبح الحديث عن الحضارات بالمجموع وليس بالمفرد، وهنا فسح المجال أمام المفكرين من مختلف الثقافات لدراسة أحوالهم الحضارية محاولين تجاوز كل عراقيل ومعوقات عملية التغير الحضاري.

وقد اختلفت وجهات النظر حول أسباب التمايز والاختلاف الحضاري بين المجتمعات الإنسانية، ولئن كانت المجموعات الإنسانية تشترك في امتلاك المخزون الوراثي نفسه فإنها تتمايز باختياراتها الثقافية، وتبدع كل واحدة منها حلولا مبتكرة مما يطرح عليها من مشاكل[2]، وإذا كان الجميع مقتنع الآن بان وجود تلك الاختلافات بين الشعوب من حيث درجات التقدم والتطور لا ترجع إلى أسباب طبيعية بيولوجية، فما هي أسباب هذا الاختلاف؟ والسؤال الأكثر أهمية بالنسبة لنا نحن كمسلمين في هذه المرحلة بالتحديد ما هي أسباب تدهورنا وتقهقرنا الحضاري ؟ وما هي العوامل المساعدة في إحداث تغير حضاري في اتجاه نهضوي؟ تخرجنا من غياهب الجمود وبراثين التاخر.

---

[1]- فليب لابورت-تورا وجان-بيار فارنييه. **اثنولوجيا انثروبولوجيا**. ت/مصباح الصمد، المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 2004

[2]-دونيس كوش. **مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية**، ت/السعيداني منير، المنظمة العربية للترجمة،بيروت،ط2007،1،ص10

* المقصود هنا ليس ان موضوع التغير الحضاري هو حبيس التناول عند المفكرين ابن وابن نبي، بل لان تناولنا اقتصر عليهما، وعليه لم نسلط الضوء ولم ندكر المساهمين الاخرين خاصة من المسلمين.

إن البحث في أسباب وعوامل التغير الحضاري لم يكن اهتمام الغرب فحسب، بل إن هذا الأشكال قد طُرح بقوة ومند قرون عديدة عند المفكرين الإسلاميين*، خاصة مع ابن خلدون، والذي حاول تقديم وصف موضوعي لحال المجتمعات العربية في عصره، مبينا العوامل المتحكمة في هذه الحالة الحضارية، ولقد جاء مالك من بني بعد ذلك بقرون، مستفيدا من التراكم المعرفي الناتج عن التقدم الكبير في منظومة المعارف الإنسانية لإعادة إحياء وبعث المشروع الحضاري من جديد، ونحن الآن بصدد القيام بعرض وجيز ومتواضع لأهم أفكار المفكرين في قضايا التغير الحضاري.

1–ابن خلدون والروح العلمي الجديد.

قدم ابن خلدون من خلال مؤلفه الشهير"المقدمة"، مشروعا واضح المعالم لعلم جديد، مستحدث الصنعة، لم يسبقه إليه أحد قبل ذلك، غير بعض الأفكار التي أوردها الفلاسفة المسلمين واليونان من قبله، وإننا لنجد الرجل قد نادى إلى إحداث قطيعة معرفية (ابستمولوجية) ومنهجية مع التراث المعرفي القديم وتنقيته من كل ترسبات المعارف غير العلمية، وقد أشار بكل وضوح إلى المغالطات الكبيرة التي وقع فيها المؤرخون السابقون ودعا إلى تحطيم الأصنام التي تعيق نمو المعرفة العلمية الموضوعية، كولع النفس بالمبالغة، والتقليد الاعمى، فكان ابن خلدون في ذلك ناقدا من الطراز الأول،سواء في المجال العرفي، أو المجال الاجتماعي حيث كان رافضا للظروف الحياتية التي تعيشها المجتمعات الإسلامية في تلك الفترة.

2–مالك بن بني: عقلية نقدية محضة.

عاش ابن بني جل حياته في ظل الاستعمار الأجنبي للبلاد الإسلامية وخاصة بلاده الجزائر، ورغم ذلك فانه لَم يرجع حالة التخلف والتقهقر إلى الاستعمار، كنوع من الإبداع الفكري، الذي تغنى به العديد من المفكرين، بل ارجع مجمل أسباب تلك الحالة الحضارية إلى أسباب ذاتية تتعلق بالفرد المسلم الذي ساهم في خلق تلك الوضعية كما سنبين لاحقا،وقد دعا هو الآخر إلى إعادة تأسيس علم الاجتماع، حتى نتمكن من تشخيص الحالة وتقديم العلاج بما يتناسب مع تلك الحالة المرضية.

إذن فقد امتاز كلا المفكرين بروح النقد والإبداع، وتجنبا كل تقليد وإتباع، لا يعتمد على روح نقدية ومنهجية واضحة ودقيقة، تساعدنا في تحديد المعالم الكبرى للمشروع الحضاري.

3–وصف الحالة الحضارية للمجتمعات الإسلامية:

حتى نكون منصفين بين الرجلين يجب الإشارة إلى أن فارق الزمان بين الرجلين قد خلق التمايز الذي سنشير إليه لاحقا حول وصفهما للحالة الحضارية للمجتمعات الإسلامية، وحيث أن مالك بن نبي نفسه أشاد بالمساهمة الجبارة لابن خلدون مع الإشارة إلى جوانب التقصير فيها، فقد كان ابن خلدون يعيش اللحظة الأولى لبداية التقهقر والانحطاط، في حين كان ابن بني يسجل نفخات الروح(الحركات الإصلاحية) الأولى في جسد متهاوي مند القرون محاولة بعث المشروع الحضاري من جديد.

لقد اتخذ ابن خلدون كما هو معروف من"العصبية " المفتاح الأساسي لحل جميع المشاكل التي يطرحها سير أحداث التاريخ الإسلامي إلى عهده[1]، حيث يمكن اعتبارها –العصبية – عامل التغير الاجتماعي الرئيس في المنظومة الخلدونية، وان كان ابن خلدون قد اهتم بالجانب السياسي بالدرجة الأولى، في مقابل العوامل الاجتماعية والثقافية التي لم يهملها جملة. بالإضافة إلى العوامل الجغرافية وتأثيرها على طبائع العمران وسلوكات الناس، وقد يرجع هذا باعتقادنا إلى الفترة التي كان يعيش فيها ابن خلدون التي هي فترة صراعات سياسية وعسكرية بين دويلات عديدة وملوك متنافسين.

وقد أشار ابن خلدون إلى مظاهر الذل والانقياد، التي تؤثر في الأخلاق والخصال الحميدة، لان الأفعال لابد من عود أثارها على النفس، فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وأفعال الشر والفسق تعود بضد ذلك، فتتمكن وتترسخ إن سبقت وتكررت[2]. إذن فقد كانُ خلق المذلة والعجز والانقياد من الأسباب الأولى التي تجعل دول تنهار ومجتمعات تنحل، ولن تقوم الدولة بعد ذلك إلا بعكس تلك الأخلاق، وكذا حال الحضارة.

وإلي جانب البعد الأخلاقي يشير ابن خلدون إلى قضايا أخرى تؤثر في الحالة الحضارية للمجتمع، كقضية الظلم حيث يرى فيه ابن خلدون مؤشر على خراب العمران، حيث يقول: "إن الظلم مخرب للعمران، وإن عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص"[3]، وإن ظهور الحجابة بالنسبة لابن خلدون لمؤشر على وجود الظلم داخل الدولة إلي جانب أمور ذات بعد اقتصادي لم يهملها ابن خلدون في تشخيصه لحالة المجتمعات في تلك الفترة.

وأما عن قضية التقليد ورغم ورودها في فصل قصير من مقدمة ابن خلدون إلا أنها كادت أن تكون لوحدها قانون اجتماعي حتمي، يفسر الكثير من الظواهر والأمراض الاجتماعية." فالمغلوب مولع أبدا بالإقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده"[4]. ويفسر لنا ابن خلدون هذا الموقف النفسي – الاجتماعي الناتج عن حالة سياسية، بأن النفس تعتقد الكمال فمن غلبها وانقادت إليه، وترى فيه غلب طبيعي، إنما لكمال الغالب، وهذه مغالطة كبيرة حسب ابن خلدون، لأن الأصل في ذلك يعود لما أنتحله الغالب من العوائد والمذاهب، بمعني بما قدمه من نشاط وأعمال وسلوكيات جعلته يملك قوة البناء، والتعمير وقوة الغلبة والسيطرة.

وإن هذه الفكرة الأخيرة نجدها أكثر نضجا وتطور مع المفكر مالك ابن نبي، الذي حاول تشخيص الحالة المرضية بكل تفاصيلها وعلى جميع المستويات، سواء عند النخبة، أو الفئات الاجتماعية الدنيا، ومعروف عند مالك بن نبي أن فترة التدهور الحضاري إنما تنطلق منذ زوال دولة الموحدين، رغم أن إرهاصاتها قد بدأت قبل ذلك، وقد عبر عن حالة الفكر في عصر ما بعد التحضر بقوله: "عندما يكون الفكر الإسلامي قي حالة أفول فإنه يغرق في التصوف والمبهم والمشوش، وفي عدم الدقة وفي النزعة إلي التقليد الأعمى وفي الإعجاب بأشياء الغرب"[5].

---

[1]–الجابري محمد عابد. **العصبية والدولة: معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامي**،ص12،

[2]–عبد الرحمن بن خلدون. **المقدمة**، دار الفكر، بيروت، ص403

[3]–نفس المرجع،ص291

[4]– نفس المرجع،ص159

[5]–بن نبي مالك. **مشكلة الأفكار**،ت/ محمد عبد العظيم علي،منشورات anep، 2005، ص15

هنا نلاحظ التقارب بين المفكرين في موضوع التقليد والذي يعني من جهة التشبث بخرافات الماضي وعاداته البالية، ومن جهة أخرى استعارة أفكار وأدوات مجتمعات أخرى يعتقد فيها التطور والتقدم، وقد عبر مالك بن نبي في موقع أخر عن حال المسلمين بقوله:" المسلمون الآن فقدوا اتصالهم بالنماذج المثالية الخاصة بعالمهم الثقافي الأصيل ولم يتمكنوا بعد من إقامة الاتصال الحقيقي مع عالم أوروبا الثقافي كما فعلت اليابان مثلا، وأننا اليوم نعاني من هذا الانخفاض المزدوج للقيم الأصلية والمكتسبة"[1].

4-إمكانية إحداث التغيير الحضاري: الإمكان الحضاري والإرادة الحضارية

إن الحديث عن إمكانية التغيير الحضاري والانتقال من الحالة الحضارية المتدهورة، إلى حالة حضارية أخرى مشرقة ليستدعي خطابا ثنائي الاتجاه، يتجه إلى القلب تارة والى العقل تارة أخرى، لان الأزمة قد استوطنتهما معا، وجدير بنا أن نوضح كما بينت مختلف الأبحاث والدراسات أن حالة التفاوت هذه ليست خاضعة لحتمية طبيعية، متعلقة بأسباب فطرية كما توهم أنصار التطورية الاجتماعية، إنما هي متعلقة بأسباب اجتماعية وثقافية، ونابجة عن إرادة نفسية، فقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى أن التفاوت في التعليم ليس تفاوتا في الحقيقة الإنسانية كما يظنه العامي،" فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعلمها، ظن كل من قصر عن تلك الملكات أنها لكمال في عقله، وان نفوس أهل البدو قاصرة بفطرتها وجبلتها عن فطرته[2] وليس كذلك، فانا نجد من أهل البدو من هو في اعلي رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته"[3]، وفي هذا دليل على قدرة البدوي على التعلم والتفوق واكتساب الصنائع، وهي دعوة لبعث الهمم وإيقاظ الإرادات من اجل إحداث التغيير الحضاري وتأسيس الدول.

وفي حديثه عن التغيير يعطي ابن خلدون عامل الزمن أهمية قصوى، فالأمر متعلق بتعاقب الأجيال، وذهاب الجيل الذي تطبع على أخلاق الذل والكسل، ومجئ جيل أخر تنبعث منه روح التحدي والإقدام.

وأما بالنسبة لمالك بن نبي ورغم سوداوية الأوضاع وقسوة الأحوال في مرحلة ما بحد التحضر، حيث انقلب سلم القيم وضعفت الهمم، وفقدت الروح الحضارية، و" الروح وحدها تتيح للإنسانية أن تنهض وتتقدم"[4]، فانه يترك الأمل قائما في إعادة النهوض من جديد بعد توفير الأسباب الموضوعية، وقبل ذلك علينا أن ندرك موقع الضعف، فالمرض قبل أن يكون اجتماعي فهو نفسي أولا، يكمن في علاقة الفكرة بالشئ في أعماق الضمير[5].

---

[1] _نفس المرجع، ص117

[2] – فطرته: تعلمه

[3] – عبد الرحمن بن خلدون، نفس المرجع السابق، ص441

[4] – بن نبي مالك. **وجهة العالم الإسلامي**، دار الفكر(دمشق)، دار الفكر المعاصر(بيروت)، 2002، ص31

[5] –بن نبي. **مشكلة الأفكار**، نفس المرجع السابق، ص(1-5)

*** أسبقية النفسي على الاجتماعي:**

حسب بن نبي فلا يمكن الحديث عن النمو الاقتصادي ولا التحسن الاجتماعي والرقي، دون التطرق إلى التغيير النفسي منطلقا من الآية القرآنية" إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[1]، فإذا تغيرت نظرتنا للواقع نستطيع أن نغير هذا الواقع، لذلك كان أعظم الجهاد جهاد النفس،مادامت هذه النفس قابلة للتغير، فالتغيير الحضاري وارد الحدوث.

5- معوقات التغيير الحضاري:

عند ابن خلدون إن التقهقر والانتكاس الحضاري مرتبط بسلوكيات الأفراد وطبائعهم، وهو حاصل لانتقال وتحول طبائع البداوة إلى طبائع الحضارة، "فأما الجيل الثالث فينسون عهد البداوة والخشونة كأن لم تكن ويفقدون حلاوة العز والعصبية...وتسقط العصبية بالجملة[2]. فيتجه أفراد هذا الجيل إلى حياة الترف والإسراف، ويبتعدون عن روح العصبية، و" شان العصبية عند ابن خلدون خطير للغاية، حيث يعتمد عليها في تفسير حوادث التاريخ الإسلامي كله"[3]. وهي عنده مفتاح حل جل مشاكل المجتمعات الإسلامية، حيث تعتبر الحبل المتين الذي يربط بين الأفراد ويجعل منهم كيان اجتماعي متماسك.

فذهاب العصبية وتبدل طبائع الناس وانغماسهم في الترف وحصول المذلة كلها من عوائق حصول الملك، وهي أسباب فيها البعد النفسي والاجتماعي والاقتصادي، إلى جانب العامل الجغرافي الذي يعتبر عند ابن خلدون من الأسباب المؤثرة في قدرة الأمم على بناء الحضارة وتطويرها، وانه لقول مبالغ فيه، وربما كان الأمر صادقا في عصره، أما الآن فقد أصبح الإنسان أكثر قدرة على التكيف مع الطبيعة والتأثير فيها، حتى أصبح يخشى على الطبيعة منه(المشاكل البيئة الناتجة عن التصنيع).

إما إذا تكلمنا عن مالك بن نبي الذي عايش عهود الاستعمار المظلمة فانه لم يتجه إلى الإجابات السهلة الجاهزة والمتسرعة، التي ترجع كل أسباب فشلنا في صناعة حضارة إلى الظاهرة الاستعمارية- نعم قد مارس الاستعمار دورا سلبيا في خلق وضعية الانحطاط والتدهور تلك-ولكنه ليس العامل الأساسي والوحيد، والذي نتكئ عليه ونتحجب به كلما كان الحديث عن أسباب تقهقرنا وتخلفنا أو تأخرنا، مستدلا بحالة اليمن التي رغم بعدها عن الاستعمار إلا أنها تعيش التخلف على جميع الأصعدة، وقد لخص بن نبي هذا الدور السلبي للمستعمر في مفهوم "معامل الاستعمار"، حيث كان يشير من خلاله إلى" أن المدرسة الاستعمارية لم تكن تهتم بنشر عناصر الثقافة الأوروبية بقدر ما تحرص على توزيع نفاياتها التي تجعل من المستعمَر عبدا للاقتصاد الأوروبي"[4]، فالاستعمار الفرنسي قد حاول فعلا نشر الثقافة في الجزائر من خلال ما أنشئه من مدارس، ولكن كان محتواها التعليمي والقيمي والأخلاقي بعيد عن الواقع الثقافي الخاص بهذا المجتمع، وانه كان يهدف أساسا إلى خلق شخصية منزوعة الجذور عارية الأغصان تكون تابعة وخاضعة لسيدها الأوروبي.

---

[1]- جزء من الآية رقم 11من سورة الرعد

[2]- عبد الرحمن بن خلون، نفس المرجع، ص182

[3]- الجابري محمد عابد، نفس المرجع،ص133

[4]- بن نبي مالك. **وجهة العالم الاسلامي**، نفس المرجع، ص65

إذن قد ذهب مالك بن نبي إلى ابعد من المظاهر الخادعة التي هي في الأصل نتائج وليست أسباب، فالسبب الحقيقي الذي يسيطر على مرحلة ما بعد التحضر هو حالة نفسية نتجت عنها أوضاع اقتصادية، سياسية، اجتماعية، تتجسد هذه الحالة فيما أطلق عليه "القابلية للاستعمار"، فكون المسلم غير حائز على جميع الوسائل التي يريدها لتنمية شخصيته، وتحقيق مواهبه، ذلك هو الاستعمار،وأما أن لا يفكر المسلم في استخدام ما تحت يده من وسائل استخداما مؤثرا وفعالا، وفي بذل أقصى الجهد ليرفع مستوى حياته، حتى بالوسائل العارضة، وان لا يستخدم وقته في هذا السبيل فيستسلم –على العكس–لحظة إفقاره وتحويله كما مهملا، يكفل نجاح الإدارة الاستعمارية، فتلك هي قابلية الاستعمار[1]. إذن فالقابلية للاستعمار هي عدم القدرة على التفكير، وعدم القدرة على العمل، وعدم القدرة على استخدام الوقت، وهذه الأعراض المرضية كلها منتشرة في الوقت الحالي في المجتمعات الإسلامية، وفي حدودها القصوى.

لقد تولدت عن هذه الحالة النفسية التي تعيشها مجتمعاتنا مواقف اجتماعية وقيم ثقافية وسلوكات اقتصادية متعددة، يمكن إيجازها فيما يلي:

أ– **الاتجاه نحو الشيئية:** يعني ذلك ببساطة أن الإنسان المسلم لا يرى القيمة إلا في الأشياء، لذلك تراه يلجا إلى اقتناء كل الأشياء التي تمتد إليها يداه، دون حاجة محددة،" وهذه الحالة قد تتولد عن حالة الحرمان كما الحال في مجتمعات العالم الثالث، وتتولد كذلك في حالة الغنى، كما في المجتمعات الأوربية"[2]، إنها حالة التكديس، وقد تحدث ابن خلدون عن الشيئية دون تسميتها حين تكلم عن جيل الترف والانغماس في الملذات في أخر الدولة، وتعد هده الظاهرة الآن من مشكلات غياب ما يسمى بثقافة الاستهلاك.

ب– الاتجاه نحو التكميم: وهي حالة أخرى من حالات الاهتمام بالمظهر دون الجوهر، في ابسط صورها أن نسأل الفرد، كم أكلت وليس ماذا أكلت؟، وفي اعقد صورها أن يؤلف كاتب ما كتابا ويقول فيه كذا صفحة وصفحة متباهي بعدد الصفحات، دون مضمونها، ومن صور هذه الظاهرة كذلك أن ننبهر بعدد الناجحين في البكالوريا ولا ننظر في النوعية (وهنا لا نقلص من قيمة الكمية إذا كانت مرفقة النوعية حتى لا تفسر عملية التكميم دائما بالسلبية)، ومعروف أن بن نبي قد شبه المجتمع بالكائن الحي(الإنسان) من خلال أعماره وقال بان المجتمعات تنتقل من عمر الأشياء إلى عمر الأشخاص ثم إلى عمر الأفكار، والتي تهتم بالأشياء والأشخاص دون الأفكار هي مجتمعات غير ناضجة بعد، ولن تستطيع تحقيق الحضارة عند هذه المرحلة من دورتها الحياتية.

ج– تقديس الأشخاص: يعتقد بن نبي أن من أسباب فشل الحركة الإصلاحية في الجزائر وخاصة بعد المؤتمر الإسلامي في 1936 خوضها في مستنقع السياسة وانجرارها وراء فكرة الزعيم، حيثُ يعطى لبعض الأشخاص هالة من القداسة، ويتصور كأنهم أبطال منقذين، هذه الحالة تجعل منهم أصنام تعبد، ولاُ يسمع إلا لقولهم، فتغيب الأفكار وتنطفئ، يقول بن نبي" عندما تغيب الفكرة يبزغ الصنم"[3].

---

[1]– – نفس المرجع، ص96

[2]– بن نبي مالك. **مشكلة الافكار**،نفس المرجع، ص60

[3]–،نفس المرجع،ص28

د– الفردانية: قد اشرنا سابقا بان ابن خلدون قد جعل من "العصبية" المفهوم الأساسي الذي تقوم عليه نظريته في الاجتماع الإنساني، وفعلا فالمجتمعات العربية كان تسير وفق نمط العصبية لأنها ظلت وحدها الرابطة الوثيقة التي توحد الرجال وتجمع قوتهم وتوحد إرادتهم، غير أن هذه الرابطة لم تكن كافية لتأهيل مجتمع ما، ليؤدي رسالته التاريخية كما يقول بن نبي، وقد دعا الإسلام إلى الوحدة والتزام الجماعة، غير أن الواقع الآن غير ذلك حيث، نرى أفرادا تجمعهم قرابة الدم ولا تجمعهم "قرابة اجتماعية" إن صح التعبير، وهذا ما ينعكس سلبا على نسيج العلاقات الاجتماعية بين الأفراد وتماسك المجتمع"وكل مجتمع أصابت فيه محن الزمن شبكة علاقاته الاجتماعية سيواجه قطعا سيئات الروح الانفرادية"[1].

هـ– الاستعارة والتقليد: وليس الحال هنا قائم على مبادئ عملية التثاقف التي فيها يكون التلاقح الثقافي بين مختلف الثقافات، فتأخذ كل ثقافة من الأخرى وتُعطي، إنما الأمر هنا وفي هذه المرحلة التاريخية من حياة المجتمعات الإسلامية قائما على حالة من الاستلاب الثقافي، تجعل من ثقافتنا المهيمن عليها مصبا للأفكار الميتة القادمة من الثقافة الغربية دون تمحيص ولا غربلة.

6–مراحل التغيير الحضاري:

أ– التأسيس المعرفي للتغيير: وما دعوة ابن خلدون لتأسيس علم جديد يدرس أحوال العمران البشري وعوارضه، إلا نتيجة لوجود دواعي عديدة، أهمها الحالة الحضارية التي كانت تعيشها المجتمعات الإسلامية، فرأى ضرورة لوجوده، وقد سار بن نبي على نهجه حين دعا إلى تأسيس علم اجتماع تطبيقي يكون الموجه الأساسي لعملية التغيير الحضاري، فيعطيها المرجعية والمنهجية ويرشدها إلى الأدوات والوسائل، وهذا العلم يجب أن لا ينفصل عن جهاز التخطيط لدولة الاستقلال، ويقوم على مبدأين[2]:

أ– أن نتبع سياسة تتفق ووسائلنا المتاحة.

ب– أن نوجد بأنفسنا وسائل سياستنا.

حيث المبدأ الأول يسمح لنا بالتعامل مع الوسائل الأولية المتاحة أمامنا، وهى الإنسان والتراب والوقت، وتجنب الارتباط بالغير وحصول التبعية إليهم، فنصفي وجداننا من القابلية للاستعمار، ويمكننا المبدأ الثاني من تحويل هذه الوسائل الأولية إلى وسائل أكمل تكون نتيجتها إلغاء الاستعمار وتصفيته، ثم إننا نجد بن نبي قد ألح على مبدأ العلم قبل العمل، فما فشل الإصلاح سابقا إلا لأنه لم يكن قائما على نظرية في الثقافةُ تمكن من تغيير نفسية الإنسان المسلم، وحري بنا الآن أن نتساءل عن صاحب هذا الدور، إن النخبة المثقفة دون شك، هي التي يجب أن تمارس هذا التأسيس المعرفي.

ب– دور النخبة: ولما كان ابن خلدون يضع اللبنات الأولى لعلم الاجتماع توقف مطولا مع علم التاريخ، وما استوقفه إلا انحراف المؤرخين وضعفهم في تقديم المعارف الموضوعية والواقعية بماضي الأمم والمجتمعات، والماضي عنده عبر وتجاربُ يبنى من خلال التمعن فيها الحاضر وُيخطط للمستقبل، فقدم نقدا لاذعا ولكنه بناءا للمؤرخين السابقين ولمن

---

[1]– بن نبي مالك. **بين الرشاد والتيه**، دار الفكر المعاصر(بيروت)، دار الفكر(دمشق)، 2002ص47

[2]– بن نبي مالك. **وجهة العالم الإسلامي**، نفس المرجع، ص98

جاء بعدهم"ثم لم يأت من بعد هؤلاء إلا مقلد، وبليد الطبع أو متبلد ينسج على ذلك المنوال...ويحتذي منه بالمثال، ويذهل عما أحالته الأيام من الأحوال"[1]، ثم دعاهم إلى إتباع طرائق ومناهج أكثر موضوعية تعطي كتاباتهم الدقة والحيادية، وتسمح بفهم الواقع الاجتماعي وظواهره الاعتيادية.

وأما موضوع النخبة عند بن نبي فذو أهمية كبرى، لأنه يرتبط بالأفكار وهي جوهر المشكلة الحضارية، فقد وجه الكثير من الرسائل لمفكري المجتمعات الإسلامية وخاصة المقلدين منهم، "فان هؤلاء المقلدين المسترسلين في تقليد غيرهم ليس لديهم فكرة عن ابتكار الغير(كيف؟)، ولا عن دوافع هذا الابتكار(لماذا؟)، ولا عن تكاليفه، فضلا عن أنهم عاجزين عن أن يبتكروا بحسب دوافعهم الخاصة"[2]. فإذا كان تقليد العامي يكون للوسائل والأشياء، فان تقليد العالم يكون في الأفكار وذلك اخطر، خاصة إذا وقع هؤلاء في فخ الفاعلية، فينبهروا بفعالية الأفكار دون النظر في صدقها، ودون التمعن في أبعادها الزمنية والمكانية، فتراهم يتناقلونها دون إخضاعها لعملية التكييف مع الواقع الثقافي الجديد، فكل فكرة هي وليدة لواقع سوسيو-ثقافي خاص.

ومما سبق نلاحظ أن تقليد النخبة نوعان: تقليد يتجاوز تأثير الزمان وتقليد يتجاهل اختلاف المكان، ويكون الموقف أكثر تعاسة إذا اجتمع الاثنان، وهذا ما حدث في الجزائرُ قبيل الاستقلال وبعده، مما احدث ما يسمى ازدواجية النخبة- بل هي الانقسامية- فالبعض لم يحالفهم التوفيق في إعادة ربط الروح الجزائرية بأثر لسلف الصالح لفقدان الصلة الحقيقية مع نماذجهم المثالية، والبعض الآخر لم يتمكن من توثيق الصلة مع الحضارة الغربية لعدم توفر الفهم الدقيق لروحها العملية[3].

هذا التصدع الذي أصاب النخبة على المستوى اللغوي أولا وعلى مستوى الأفكار والقيم ثانيا، كان عميقا جدا، امتد تأثيره إلى جميع المستويات الاجتماعية، فلم نعد نرى نخبتان فحسب بل مجتمعان، الأول يمثل القيم التقليدية لأنه متجه إلى الماضي، والثاني يريد أن يصنع التاريخ انطلاقا من لحظة الصفر، يتصنع قيم الحاضر والمستقبل، فأصبحنا أمام وضعية "لا تعايش فكري" بين الأفكار المطبوعة للفريق الأول والأفكار الموضوعة للفريق الثاني.

فلإحداث التغيير الحضاري المأمول يجب أنُ يردم هذا التصدع بين النخب المنقسمة من خلال الحوار، والبحث في القواسم المشتركة، فتتشكل انتلجنسيا عضوية تحمل طموحات وهموم مواطنيها، وتكون لها روح المبادرة لإعادة بعث هذا المشروع.

7- آليات التغيير الحضاري:

أولا: مرجعيته: جاء الفصل الخامس من الباب الثالث من الكتاب الأول من مقدمة ابن خلدون تحت عنوان: *في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها*، حيث ارجع ابن خلدون السبب في ذلك إلى الوازع الديني(الأخلاقي) الذيُ يذهب بعض الصفات الخالقة للفُرقة مثل التحاسد، التنافس، الأنانية

---

[1]-عبد الرحمن بن خلدون. نفس المرجع، ص18

[2]-بن نبي مالك. **مشكلة الأفكار**، نفس المرجع، ص8

[3]- نفس المرجع، ص103

وغيرها، وكلها تنافي الروح الجماعية التي هي قاعدة للقوة والغلبة، وتحقيق الوجهة الواحدة، وحصول الاجتماع المؤسس للدولة.

وعند مالك بن نبي فان من أسباب فشل بعض المحاولات الإصلاحية السابقة عدم وجود مرجعية واضحة، فلم يتجه كل طرف إلى مصدر إلهامه الحق، فالاصطلاحيون لم يتجهوا إلى أصول الفكر الإسلامي الصافي، كما أن الحداثيون لم يعمدوا إلى أصول الفكر الغربي الحقيقية، إذن فلا يمكن تحقيق التغيير الحضاري دون الاستناد إلى مرجعية دينية وأخلاقية واضحة لأنها أساس خلق الظاهرة الاجتماعية، حيث يقول في كتابه شروط النهضة:" إن الكلمة لمن لروح القدس، إنها تساهم إلى حد بعيد في خلق الظاهرة الاجتماعية، فهي ذات وقع في ضمير الفرد شديد، إذ تدخل إلى سويداء قلبه، فتستقر معانيها فيه لتحوله إلى إنسان ذو مبدأ ورسالة"[1].

ثانيا: تحريك الطاقة الحيوية وتكييف الأفكار:

تبدأ نقطة التغيير عند مالك بن نبي من اللحظة التي نستطيع فيها التحكم في الطاقة الحيوية، وبتحريك تلك الطاقة نتمكن من توظيف المصادر الأولية لأي حضارة إنسانية (الإنسان، التراب، الوقت)، وهي وسائل متاحة لجميع المجتمعات، وجب الانطلاق منها، والطاقة الحيوية في ديناميكيتها التاريخية تشبه تماما حركية العصبية عند ابن خلدون، رسمها مالك بن نبي في منحنى ذو ثلاث مراحل، يبدأ من نقطة الصفر (نقطة بزوغ الفكرة الحضارية) ليأخذ منحى تصاعدي نتيجة لقوة الروح–العامل الضروري لصناعة الحضرة– حيث الروح هي التي تدعم العقل الذي هو وسيلة العلم الأولى، هذه المرحلة تبدأ مع بداية البعثة المحمدية إلى غاية سنة 37هجرية (معركة صفين)،ثم تأتي المرحلة الثانية حيث يحدث استقرار في الطاقة الحيوية، وهي مرحلة يسيطر فيها العقل، ثم بعد ذلك يبدأ المنحنى في التناقص والاتجاه نحو اللحظة صفر من جديد، فيها يبدأ توجيه الواقع الاجتماعي من قبل الغرائز ويبدأ إشعاع الروح والعقل في الانطفاء(طور زوال الدولة عند ابن خلدون).

والدورة السابقة تمثل كذلك دورة "تكييف الأفكار"، حيث يكون التكييف في المرحلة الأولى في الذروة ثم يبدأ في التناقص تدريجيا عندما تستبدل الأفكار الأصيلة بأفكار أخرى مكتسبة، حيث أن قدرة اى فكرة على التكيف تختلف من مجتمع لأخر، وفي نفس المجتمع من مرحلة تاريخية لأخرى، ومادامت الحضارة عند مالك بن نبي هي إنتاج فكرة حية تطبع على مجتمع ما بعد التحضر الدفعة التي تجعله يدخل التاريخ، فكيف يمكننا إنتاج هذه الفكرة التي تجعلنا نعود إلى مسار التاريخ؟ وما طبيعتها؟ وكيف نحولها إلى واقع اجتماعي نجسد فيه جوهر الحضارة؟ وما علاقة هذه الفكرة بعالم الأشخاص وعالم الأشياء؟.

أ– الأفكار المطبوعة والأفكار الموضوعة: يقول مالك بن نبي بوجود نماذج فكرية أساسية، تكون مطبوعة في وجدان كل فرد، تنتقل من جيل إلى جيل، فهي لا تختص بجيل دون أخر، هذه الأفكار المطبوعة ترتبط ارتباطا وثيقا بمصدرها، وتستمد قوتها من قوته –مصدرها ديني بالضرورة– وهي التي تعمل على تكييف الطاقة الحيوية في المرحلة

[1]– مالك بن نبي. **شروط النهضة**،مرجع سابق، ص22

الحضارية الأولى، ويوجد نوع أخر من الأفكار تسمى الأفكار الموضوعة، التي توجه النشاط الإنساني حسب أيسر الطرق والمناهج التقنية[1].

وأن الأفكار المطبوعة هي التيُ تعطي الخصوصية الثقافية وتجعل كل مجتمع يمتاز بواقع ثقافي خاص، هذا التصور لمالك بن نبي يقترب من نظرية الأنماط الثقافية لعالمة الانثروبولوجيا الأمريكية "روث بنيديكت ruth Benidect". هذه الخصوصية يجب أن تراعى عند كل محاولة لإحياء ركود الواقع الثقافي خاصة أثناء استعارة أفكار وقيم ثقافية من واقع ثقافي آخر ضمن ما يسمى عملية التثاقف.

إذن فان كل محاولة لإحداث تغيير حضاري لتتطلب حذرا شديدا، لأنها عملية معقدة وشاملة، تشمل عناصر مادية وأخرى لامادية(أخلاق وقيم وعواطف)، تنطلق أولا من تنقية الواقع الثقافي من أفكاره الميتة الموروثة من عصر الانحطاط الحضاري، المسيطرة على ضمير مسلم ما بعد مرحلة الموحدين، ثم تحصينه من الأفكار القاتلة المستوردة من واقع ثقافي آخر لا ندرك جوهره ولا مالاته.

ثم يدعونا مالك بن نبي أن نميز نين صدق الأفكار وفعاليتها فلا ننبهر بفاعلية الفكرة دون الرجوع إلى أصالتها وصدقها، وصدق الأفكار هي صفة ذاتية وعينية مستقلة عن التاريخ عنده، وهي كذلك مستقلة عن الواقع الاجتماعي، أما الفاعلية فترتبط بعاملي الزمان والمكان، وهنا ينبهنا مالك بن نبي إلى أن الواقع الثقافي للحضارة الأوربية، خاصة في نظامها الاستعماري يحمل وجهان، وجه يتجه إلى أخلاقياتها الخاصة، ووجه ينظر إلى الدنيا ولا يعني بشيء آخر سوى الفاعلية، وللأسف أن مثقفينا لا يروا إلا وجها واحدا، مما ساعد على تسرب الأفكار القاتلة إلى واقعنا الثقافي.

ب– شبكة العلاقات الاجتماعية ودورها في خلق التوازن:

إن عالم الأفكار عند مالك بن نبي ليس مستقلا يسبح في فضاء خاص، يسهل التحكم فيه وتوجيهه، إنما هو في حالة من الصراع مع عالمين آخرين، هما عالم الأشخاص وعالم الأشياء، كل عالم منهم يريد أن يفرض منطقه الخاص، وان اختلاف موازين القوى يؤدي إلى خلل اجتماعي أساسي داخل المجتمع، وصمام الأمان لتوازن هذه العلاقة هو شبكة العلاقات الاجتماعية، حيث تكمن محورية شبكة العلاقات الاجتماعية في أنها تشكل القاعدة التي تمكن مصادر الفعل الإنساني الثلاثة من العمل والتأثير في صناعة التاريخ.

وأن أول عمل يؤديه مجتمع معين في طريق تغيير أحواله مقترن أو مشروط بمدى اكتمال وقوة هذه الشبكة من العلاقات، "فشبكة العلاقات الاجتماعية هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده"[2]، وإذا عدنا إلى التاريخ الإسلامي نجد أن أول عمل قام به الرسول صلى الله عليه وسلم لحظة دخوله المدينة المنورة بعد بناء المسجد الذي يعتبر من أهم المؤسسات الاجتماعية، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وهذا ما يسر للمجتمع الإسلامي أن يضع قطار الحضارة على سكة التاريخ بكل قوة وعزم وإدارة وحسن تدبير.

---

[1]– بن نبي مالك. **مشكلة الأفكار**، نفس المرجع، ص43

[2]– بن نبي مالك. **ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية**، ت/ شاهين عبد الصابور، دار الفكر، دمشق، 1985، ص25

خاتمة:

وفي ختام هذا المقال المتواضع الذي حاولنا من خلاله الاقتراب من تصورين متباعدين زمانيا، ومتقاربين نظريا ومنهجيا، حاولا تجاوز منظومة معرفية ميزتها الركود والتقليد، واستيراد الأفكار، إلى محاولة بعث منظومة أخرى قائمة على التجديد الفكري، ومستندة إلى مبادئ نظرية أصيلة وقواعد منهجية مضبوطة، فواجب إذن التنويه بهذا المحاولات وغيرها، وإعادة دراستها بكل روية، وروح نقد.

وقد حاول كل من ابن خلدون ومالك بن نبي وضع قطيعة ابستميولوجية مع مختلف التصورات المغلوطة حول الواقع الاجتماعي للمجتمعات الإسلامية، سواء المبنية على قواعد تجريدية مجردة عن هذا الواقع، أو الموروثة عن طرق تفكير تقليدية أو خرافية، أو حتى المستنبطة من فلسفات وضعية لا تراعي الخصوصيات الثقافية والاجتماعية، وقد اقتنع المفكران أن أي محاولة لإصلاح هذا الواقع متجاوزة الإصلاح المعرفي هي محاولة فاشلة من الأساس لان معرفة الداء هي شرطا لازما لوصف الدواء.

وليس الإصلاح عند بن نبي أن نضع قطار المجتمع في مسلك قد تم سلكه من احد المجتمعات نتوهم فيه نجاحنا كما هم قد نجحه فيه، آو اعتقدنا نجاحهم، إنما التغيير الحضاري يعني أننا نفتح دربا جديدا خاصا، متكيفا مع ما نملك من موروث ثقافي وعقائدي وعلائقي(شبكة علاقات اجتماعية ذات خصوصية تميزنا عن غيرنا)، تكون الانطلاقة في هذا الدرب المتجدد بعد أن نجيب على أهم سؤالين: لماذا نريد التغيير؟ فنبحث عن الأسباب التي تدفعنا للتغيير، والسؤال الثاني كيف يكون التغيير وهل اننا نغير نحن بذواتنا ما نريد تغييره ؟ أم ننتظر تغيير اضطراري وماله المجهول ؟ وهنا نستوضح الأدوات والوسائل التي يحدث بواسطتها التغيير.

ولا بد أن يراعي كل تغيير حضاري بالضرورة الإصلاح الديني، بالرجوع إلى منابع الإسلام الصافية، وأفكاره الصادقة والفعالة في عصر البعثة والخلافة الإسلامية الراشدة، والعرب كما قال ابن خلدون لن يحصل لهم الملك إلا بالفكرة الدينية، بما تحمله من بعد غيبي أخروي وبعد اجتماعي دنيوبي ويجب كذلك أن نتجاوز فكرة الحق إلى فكرة الواجب، مبتعدين عن سلبيات فلسفة التنوير الغربية، وان ننتقل من مرحلة العلم إلى مرحلة العمل، حتى لا نكون كالحمير التي تحمل أسفارا.

قائمة المصادر والمراجع

1. القران الكريم.

2. فليب لابورت-تورا وجان-بيار فارنييه. اثنولوجيا انثروبولوجيا. ت/مصباح الصمد،المؤسسة الجامعية للنشر والتوزيع،بيروت،ط1، 2004

3. دونيس كوش. مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية، ت/السعيداني منير، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط1، 2007،

4. الجابري محمد عابد.العصبية والدولة:معالم نظرية خلدونية في التاريخ الإسلامية

5. عبد الرحمن بن خلدون. المقدمة، دار الفكر، بيروت،

6. بن نبي مالك. مشكلة الأفكار،ت/ محمد عبد العظيم علي،منشورات anep، 2005،

7. بن نبي مالك. وجهة العالم الإسلامي، دار الفكر(دمشق)، دار الفكر المعاصر(بيروت)، 2002

8. بن نبي مالك. ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية، ت/ شاهين عبد الصابور، دار الفكر، دمشق، 1985

9. بن نبي مالك. بين الرشاد والتيه، دار الفكر(دمشق)، دار الفكر المعاصر(بيروت)، 2002

10. بن نبي مالك. شروط النهظة، ت/ شاهين عبد الصابور، دار الفكر، دمشق، 1986